كتب بالعربية

فلسطين وقضية الحرية في سِيَر وإبداعات المثقفين الفلسطينيين

كريم مروة

بيروت: الدار العربية للعلوم ناشرون، ٢٠١٣. ١٨٣ صفحة.

في هذا الكتاب يستحضر كريم مروة سِيَر وإبداعات كوكبة من أدباء فلسطين وشعرائها ومفكريها الكبار من أجيال متعددة، الذين جمعهم قاسم مشترك واحد هو أن حياتهم تداخلت في مأساة شعبهم الفلسطيني، وتكونت شخصياتهم الفكرية والأدبية والسياسية في معاناة هذا الشعب الطويلة. وتوزعت إبداعات هؤلاء المثقفين الفلسطينيين على ميادين متنوعة شملت: البحث التراثي والتاريخي، والشعر، والقصة، والرواية، والنقد الأدبي، والرسم، وهم: بندلي جوزي؛ عبد الكريم الكرمي؛ إميل توما؛ إميل حبيبي؛ توفيق زياد؛ كمال ناصر؛ إحسان عباس؛ معين بسيسو؛ غسان كنفاني؛ فدوى طوقان؛ إدوارد سعيد؛ محمود درويش؛ ناجي العلي.

ويشير كريم مروة إلى أنه أعدّ هذا الكتاب الذي سيُلحقه بكتاب آخر يتناول فيه سيرة عدد جديد من مثقفي فلسطين وإبداعاتهم، "كوفاء لهؤلاء الكبار الذين ساهموا بسيرهم وبإبداعاتهم في تكوين ثقافة عربية راقية، تشكّل جزءاً ثميناً ومميّزاً من الثقافة الديمقراطية العربية الحديثة."

وما يميّز هذا الكتاب هو أن مؤلفه، ابن بلدة حاريص الجنوبية التي لا تبعد سوى بضعة كيلومترات عن فلسطين، يستند، في قراءته سِيَر هؤلاء المثقفين الفلسطينيين ونتاجاتهم، إلى تجربة طويلة وغنية في الحياة وفي العمل الثقافي والسياسي في لبنان والعالم العربي، كما يستند إلى صداقات عميقة ربطته بمعظم هؤلاء المبدعين الفلسطينيين، وقامت، في الأساس، على قاعدة انتمائه التاريخي إلى فلسطين، وهو انتماء نبع من "وعي كامل بأهمية الموقع الأساس الذي تحتله فلسطين، بتاريخنا القديم والحديث، في حياتنا العربية بالمفرد والجمع، وأهمية النظر إلى المستقبل الذي ستصنعه لفلسطين الأجيال القادمة."

وإلى جانب التعريف بسيرة كل واحد من هؤلاء المبدعين الفلسطينيين، يقدم لنا كريم مروة، في كتابه هذا، مقتطفات من نتاجاتهم وأحاديثهم. وكي لا يتصور القارئ أنه أمام كتاب نقدي متخصص، فإن مؤلفه، وفي أكثر من موضع، يعترف

بأنه لا يعتبر نفسه "لا شاعراً ولا فناناً، ولا مبدعاً في أي ميدان من ميادين الأدب والفن"، لكنه شغوف، منذ شبابه الباكر، "بالأدب والفن وبكل ما له صلة بالثقافة"، ومسكون "بحب الشعر، وبالبحث عن الثقافة وعن المبدعين فيها، في التاريخ القديم وفي التاريخ المعاصر، في بلداننا وفي ساحات العالم الواسعة."

عالم المنفى

لا يتسع مجال هذه المراجعة القصيرة لعرض تفصيلي لسِيَر ونتاجات هذه الكوكبة من مبدعي فلسطين، ولذلك، سأحاول التركيز على بعض النقاط التي استأثرت انتباهي بعد الانتهاء من قراءة هذا الكتاب، وأول هذه النقاط يتعلق بعالم المنفى وأثره.

باستثناء الباحث التراثي واللغوي بندلي جوزي (١٨٧١ ـ ١٩٤٢)، الذي اختار المنفى في روسيا طواعية، ورحل عن الدنيا قبل أن يشهد نكبة شعبه، فإن الأديب والكاتب الفلسطيني الذي بقي في وطنه "المغتصب"، أو الذي اضطر إلى تركه بعد النكبة، عانى جرّاء الواقع الشاق لعالم المنفى. فلندن، كما يلاحظ كريم مروة، كانت منفى معين بسيسو (١٩٢٦ ـ ١٩٨٤) السابع، بعد القاهرة وعمّان وبغداد ودمشق وبيروت وتونس، هذا الشاعر الذي "لم تغادره المعاناة في مدينته غزة وفي المنافي القسرية والطوعية." أمّا غسان كنفاني (١٩٣٦ ـ ١٩٧٢)، فمن العبث الدخول إلى عالمه الأدبي، كما ينقل كريم مروة عن الناقد فيصل دراج، "من باب غير باب 'النكبة النكباء، التي وزعته، لاجئاً، على أكثر من قطر عربي"، فكنفاني، الأديب، كتب "سيرة الأماكن العربية المختلفة التي قصدها، بعد النكبة، مع غيره من الفلسطينيين." أمّا الباحث والناقد إدوارد سعيد (١٩٣٥ ـ ٢٠٠٣)، فعاش حياته في المنافي "خارج المكان"، الأمر "الذي جعله يعلن من دون تردد بأنه، خارج المكان الطبيعي لأي إنسان في وطنه، فلسطيني ولبناني ومصري وأميركي في الآن ذاته."

بيد أن أكثر من عبّر عن هذه المعاناة في عالم المنفى هو، من دون شك، الشاعر محمود درويش (١٩٤١ ـ ٢٠٠٨). فقد كان وطنه الأصلي، فلسطين، هو "منفاه الأول"، وذلك بعد أن اكتشف، فجأة، أنه "يحمل جنسية الذين اغتصبوا أرضها وتاريخها، واغتصبوا حلمه وحلم شعبه في وطن حر وسيد ومستقل." وحين بلغ السابعة والعشرين من عمره، وكان الشعر عنده "قد تجاوز عمره، مدى وصدى وفعلاً"، أحس إحساساً جارفاً "بأن المنفى الذي يعيش فيه داخل وطنه المتخيل صار يُضيّق عليه أنفاسه"، فاختار الذهاب إلى منفاه الثاني، إلى الشتات الفلسطيني في عالم عربي "كان يظن أن فضاءه أكثر رحابة من منفاه القسري في وطنه الأسير"، لكنه سرعان ما اكتشف أنه "محكوم بأن يعيش، مع شعبه، في المنافي القسرية والطوعية، من كل الأنواع." ولم يكد يبلغ السابعة والستين من عمره حتى بدأ يشعر بأنه بحاجة إلى منفى آخر "يحرره من منفاه الطوعي الذي عاش فيه أعوامه الأربعين الماضية"، فعاد "جسداً محايداً، وروحاً عظيمة،

وتراثاً خالداً، عاد إلى منفاه الأخير، على تلة في قطعة من أرض فلسطين، إلى جوار صديقه ياسر عرفات، تلة تطل بالخيال من الجهة الجنوبية الغربية على مدينة حيفا، وعلى مسقط رأسه ومكان إقامة أمه وأهله."

ويرى كريم مروة أن عالم المنفى الذي عاش فيه محمود درويش على امتداد حياته، كان "هاجسه الدائم في الكثير من قصائده." فهو كبر شاعراً في وطنه، ثم تحوّلت كلماته الشعرية إلى "كتلة من الفعل الكفاحي" في منفاه العربي، ثم العالمي، أعطت المقاومة الفلسطينية "بعداً إنسانياً تجاوز بقوته كل الحدود."

كما كان عالم المنفى حاضراً في حياة الرسام ناجي العلي (١٩٣٧ ـ ١٩٨٧) وإبداعاته. فهو نزح مع أسرته في سنة ١٩٤٨ إلى لبنان، وتحديداً إلى مخيم عين الحلوة بالقرب من مدينة صيدا. وعلى جدران هذا المخيم، بدأ ناجي العلي يمارس هواية الرسم. وبعد أن برزت موهبته الفنية، انتقل إلى العمل في الكويت، ثم رجع إلى لبنان، وسافر من جديد إلى الكويت، لكنه أُبعد عنها فانتقل إلى لندن، حيث جرى اغتياله، ودُفن جثمانه في العاصمة البريطانية.

ويشير كريم مروة إلى أن المنفى كان "مصدر قلق ناجي العلي، ومصدر الغنى في موهبته الفنية." وكانت الرموز المتكررة في رسومه، كالمرأة الحزينة الباكية التي تعلق مفتاح الدار في رقبتها، أو أسلاك الحدود الشائكة التي تفصل الفلسطيني عن وطنه، أو شخصية "حنظلة" الطفل الحافي، هي "التعبير الصادق عن المنفى وعن معاناة الفلسطيني المقهور في المنفى."

علاقة المثقف بالسياسة

يلاحظ قارئ هذا الكتاب أن إشكالية العلاقة بين المثقف والسياسة فرضت نفسها على معظم هؤلاء المبدعين الفلسطينيين، وهو أمر طبيعي في حالة مثقفي شعب واجه ما واجهه الشعب الفلسطيني.

فالشاعر عبد الكريم الكرمي (١٩٠٩ ـ ١٩٨٠)، المعروف بـ "أبو سلمى" وبـ "زيتونة فلسطين"، برز واحداً من شعراء فلسطين خلال حقبة ثورة ١٩٣٦ ـ ١٩٣٩، إلى جانب إبراهيم طوقان وعبد الرحيم محمود، وظل أحد رموز نضال الشعب الفلسطيني حتى رحيله. ومع أنه كان قومياً عربياً، وقريباً من اليسار، إلاّ إنه لم يلتزم بأي حزب سياسي.

أمّا الباحث التراثي والناقد إحسان عباس (١٩٢٠ ـ ٢٠٠٣)، الذي كان صديقاً للشيوعيين واليساريين الفلسطينيين، فعثر، في مسيرته، على معنى غير تقليدي للسياسة، يتمثل، كما قال، "في التحصيل العلمي والمثابرة المعرفية وبذل الجهد كل الجهد لخدمة القارئ العربي وإغناء المكتبة العربية، والبرهنة على أن الفلسطيني الوطني هو الباحث المجتهد، وأن المثقف الوطني العربي هو المدافع المستنير عن الثقافة العربية." ويحدد إحسان عباس موقفه من علاقة الثقافة بالسياسة بقوله: "لا أظن أنني من أنصار المثقف التقني، أو من تلك الفئة التي تجعل الكتابة اختصاصاً طقوسياً ضيقاً يصدر عن نخبة متعالية، أو يعود إليه. فحين كتبت 'أبو حيان التوحيدي'، في فترة

مبكرة من حياتي الفكرية، لم أكن أمارس كتابة الاختصاص، بل كنت أتحدث عن اغتراب المثقف الذي يتطلع إلى مجتمع قائم على الحرية والمساواة." ويضيف: "ويسري هذا المنطق على كتابي الذي وضعته عن عبد الوهاب البياتي في فترة مبكرة أيضاً. ذلك أن ذلك الكتاب لم يكن دفاعاً عن شاعر معيّن بقدر ما كان مناصرة لتصوّر جديد عن الشعر، ودعماً لما يدعى بـ 'الحداثة الشعرية' التي لا معنى لها إن لم ترتبط بحداثة اجتماعية شاملة."

واعتقد الباحث والناقد إدوارد سعيد بالدور الكبير الذي يمكن أن يؤديه المثقف النقدي، الذي عليه، في انتقاده للواقع القائم وطموحه إلى التغيير، أن "يشيع الحرج، الاعتراض، بل حتى الامتعاض." وهذا ما فعله إدوارد سعيد نفسه، الذي بعد أن وافق، في سنة ١٩٧٧، على الانضمام إلى عضوية المجلس الوطني الفلسطيني وكان قريباً من قيادة منظمة التحرير الفلسطينية، استقال، في سنة ١٩٩١، من عضوية هذا المجلس "احتجاجاً على ما اعتبره أخطاء فادحة في سياسة منظمة التحرير"، وراح يوجّه، وخصوصاً بعد اتفاق أوسلو، انتقادات لاذعة إلى قيادتها. وهذا الدور الكبير للمثقف النقدي، اعتقد به أيضاً الرسام ناجي العلي الذي انضم، لفترة قصيرة، إلى حركة القوميين العرب في لبنان بتأثير من غسان كنفاني، ثم اشتهر "بمواقفه الوطنية الجذرية وبانتقاده الدائم للحكومات العربية وللقيادات الفلسطينية"، معتبراً أن واجب المثقف هو "أن يظل ملتصقاً بهمّ الناس ويعبّر عن هذا الهمّ."

وخلافاً لهؤلاء المبدعين، مارس كل من إميل توما، وإميل حبيبي، وتوفيق زياد، ومعين بسيسو، وكمال ناصر، وغسان كنفاني، العمل السياسي داخل أطر سياسية، علماً بأن مآلاتهم اختلفت فيما بينها.

فقد مارس المؤرخ إميل توما (١٩١٩ ـ ١٩٨٥) العمل السياسي، في صفوف الشيوعيين واليساريين الفلسطينيين، وهو في العشرين من العمر، ولم يمنعه بروزه اللاحق كواحد من أبرز المؤرخين الفلسطينيين والعرب من الحفاظ على قناعاته الفكرية وموقعه القيادي في صفوف الحزب الشيوعي، حتى آخر لحظة من حياته. وهذا ما فعله الشاعر توفيق زياد (١٩٢٩ ـ ١٩٩٤) الذي أصبح قائداً شيوعياً "صاحب دور مجيد وتجربة رائدة"، وهو يمارس كتابة الشعر "في الدفاع عن شعبه وعن قضيته الوطنية"، وما فعله أيضاً الشاعر معين بسيسو الذي مارس العمل السياسي وهو في مرحلة دراسته الثانوية، وبدأ ينشر قصائده الوطنية منذ سنة ١٩٤٦، و"دخل عالم التشرد والمنافي والسجون بعد أن أصبح شاعراً ومناضلاً وقائداً شيوعياً."

بيد أن مآل الأديب والقائد الشيوعي إميل حبيبي (١٩٢١ ـ ١٩٩٦) كان مختلفاً عن مآلات هؤلاء المبدعين الشيوعيين الفلسطينيين الثلاثة. فهذا السياسي والمثقف الفلسطيني الكبير كان، كما يكتب كريم مروة عنه، "إنساناً قلقاً على الدوام"، عاش "صراعاً داخلياً بين موقفه الشخصي الذاتي من كل قضية وظاهرة وبين موقفه الحزبي." وعندما

أحس بالإعياء جرّاء حمل بطيختَي السياسة والأدب معاً، "قرر بشجاعة أن يتخلى عن واحدة منهما لصالح الأُخرى، فاختار الأدب، ليس كحرفة، بل كميدان نشاط إبداعي ومعرفي وثقافي." ومع أنه خرج، في أعوام حياته الأخيرة، من صفوف حزبه الشيوعي، بعد أن اختلف معه، إلاّ إنه لم يخرج "من جلده"، ولم يتخلَّ عن اشتراكيته، "كما أحب هو أن يفهم الاشتراكية، في الزمن الجديد"، و"بقي فلسطينياً عربياً حقيقياً، معادياً لجوهر المشروع الصهيوني."

الشاعر كمال ناصر (١٩٢٤ ـ ١٩٧٣)، والأديب غسان كنفاني، جمعا بسهولة، حتى استشهادهما، بين صفتَي الأديب والسياسي. فقد انتسب كمال ناصر، منذ وقت مبكر، إلى حزب البعث العربي الاشتراكي، ثم انتُخب عضواً في اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية والناطق الرسمي باسمها، حتى استشهاده في بيروت، في سنة ١٩٧٣، على يد وحدة عسكرية إسرائيلية، مع قائدين فلسطينيين آخرين هما كمال عدوان وأبو يوسف النجار. أمّا غسان كنفاني الذي انتسب إلى حركة القوميين العرب، ثم أصبح من أبرز قادة الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين، إلى أن استشهد، في سنة ١٩٧٢، في بيروت في تفجير سيارته على يد عملاء الموساد الإسرائيلي، فلم يجد أي تناقض بين التزامه السياسي وبين ممارسة وظيفة الأدب، وإنما جمع بين الثقافة والسياسة بعلاقة جدلية متبادلة، كما يتبيّن من قوله: "إن حياتي السياسية نتجت عن كوني روائياً وليس العكس. لقد حاولت كتابة قصة شعبي الفلسطيني قبل أن تتبلور أمامي الرؤية السياسية. ولقد رأيت أن هناك شيئاً ما ينقصني إذا لم أنخرط في الحياة السياسية، وأنني كنت سأتضاءل كثيراً لو لم أكن روائياً في نفس الوقت."

قلق العلاقة بين المثقف والسياسي عاشها محمود درويش الذي انتسب، قبل أن يغادر وطنه فلسطين، إلى صفوف الحزب الشيوعي. وعن هذا القلق يشير كريم مروة إلى أنه اكتشف، منذ وقت مبكر "ازدواجية ما في شخصية محمود درويش": فواحدة من شخصيتيه "ظلت ثابتة"، بينما تعرضت الأُخرى "لتبدلات وتحولات". الثابت من الشخصيتين هو "شخصية الشاعر فيه، شاعر الإنسان والقضية"، والمتبدل المتحول فيهما هو "شخصية السياسي الباحث عن مكان له في الأحداث آمن، أو شبه آمن." فبعد أن انتُخب محمود درويش في سنة ١٩٨٧ عضواً في اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية، أدرك، في أعقاب توقيع اتفاق أوسلو، أنه بحاجة إلى أن يكون "مستقلاً بمواقفه"، فخرج من اللجنة التنفيذية، ورفض أن يكون "وزيراً للثقافة ليتفرغ لعمله الإبداعي." وهكذا، حين عاد إلى ميدانه الرحب، إلى ميدان الشعر، خارج ذلك النوع الصعب الملتبس من المسؤولية، أبدع "أرقى أنواع شعره، وأرقى ما أنتجته قرائح الشعراء العرب المعاصرين."

معاناة الفلسطينية الأديبة

الشاعرة فدوى طوقان (١٩١٧ ـ ٢٠٠٣) هي المرأة الوحيدة التي

اختارها كريم مروة بين هذه الكوكبة من مبدعي فلسطين. فابنة نابلس هذه، تمكنت من اقتحام الحياة والبروز بصفتها واحدة من أبرز الأديبات الفلسطينيات، على الرغم ممّا واجهته من معاناة داخل "سجنها العائلي" الذي دفعها إلى التفكير، أحياناً، في الانتحار. فقد ولدت لأبوين من عائلة معروفة محافظة، و"تعلمت القراءة والكتابة في المدرسة قبل أن يخرجها أهلها منها"، فصارت "تسرق الكتب وتقرأ في السر، وتحاول الكتابة في السر أيضاً"، إلى أن اكتشف "طموحها الجارف إلى الحياة" و"ميولها الأدبية" شقيقها الشاعر إبراهيم، فساعدها على "الاقتراب التدريجي من كتابة الشعر، إلى أن صارت في زمن قصير شاعرة." لكن الأصعب في حياتها، كما يكتب كريم مروة، كانت "فجيعتها بنكبة عام ١٩٤٨، ثم فيما بعد فجيعتها بهزيمة حزيران عام ١٩٦٧"، إذ شكّلت هاتان الفاجعتان "مصدراً لمزيد من الكآبة في حياة فدوى، ومصدراً في تفجر عبقريتها الشعرية"، التي أبرزتها ثمانية دواوين صدرت لها.

ماهر الشريف
باحث فلسطيني

من منشورات مؤسسة الدراسات الفلسطينية

فلسطين
دروس الماضي وتحديات الحاضر
واستراتيجيات المستقبل

١ـ فلسطين والفلسطينيون

تحرير

جميل هلال

١٧٧ صفحة ١٢ دولاراً